من كتاب ملوك العرب [1]

صنعاء اليمن

في صباح اليوم الثاني عشر (١٨ نيسان سنة ١٩٢٢) بعد خروجنا من لحج وصلنا الى حزيز . وهي آخر مرحلة في رحلة مشقاتها تنسي المسافر ما فيها من الحسنات والمستغربات . ولكن أثر المشقات يزول فتعود الحسنات الى مقامها في الذاكرة وفي الفؤاد . اني وانا اكتب الآن أتمتع بها واستأنس بترداد ذكراها . كأني في رحلة اخرى الى صنعاء ، لا مشقة فيها ولا عناء

بتنا الليلة السابقة في وعلان ، وهي قرية صغيرة على مسافة خمسة عشر ميلاً من صنعاء ، وخرجنا منها باكراً فأحسست ببرد شديد يستغرب مثله في الدرجة الخامسة عشرة عرضاً من الارض . ولكننا اصبحنا كذلك في علو يدنو من عشرة آلاف قدم فوق البحر . هذا هو السبب في استقبالنا تلك الساعة طقساً الى الشمال . على ان الشمس ، شمس اليمن ، لتنحر بقرن صغير من قرونها الذهبية كل ريح يهب نقدميها ، ثم تحييها ، وترسل الحرارة فيها

وصلنا الى حزيز ، وما هي الاّ بضعة بيوت وسمسرة [2] ، ساعة الضحى فجلسنا هرباً من الشمس في فيء حائط نتناول الفطور . وكان مما قام حولنا من الجبال اثنان شهيران بما ينبتان ويجاوران . وهما (بلومطر) غرباً ، وفيه احسن ما يزرع في اليمن من البن ، و (لقم) شمالاً ، وفي ظله اكبر واجمل مدينة في اليمن ، بل في شبه الجزيرة العربية كلها

وما هي الاّ ساعة بعد ارتحالنا من حزيز حتى تراءت لنا رؤوس المآذن في تلك المدينة ، ثم قباب مساجدها وهي بيضاء تتوهج في نور الشمس الذي يتوجرج كالزئبق في الجاف الشفاف من الهواء . ثم ونحن ندنو من (لقم) الذي اصبح على يميننا ، بدت لنا المدينة ذاتها وهي محوطة بالجبال تمتد شرقاً وغرباً ، كأنها في حلتها البيضاء سلسلة من التلال الكلسية ، في سهل ذهبي متقطع الاخضرار

---

(١) وهو تحت الطبع في المطبعة العلمية لصاحبها يوسف صادر ببيروت

(٢) السمسرة في اصطلاح اهل اليمن الخان

اثنا عشر يوماً من المشقات والوهلات ، وهذه صنعاء تسبك اضعافها . أي صنعاء ، مثّلك لنا التاريخ فكنت مليكة الزمان ومثّلك لنا العلم فكنت يوماً ربة العرفان ، ومثّلتك لنا الاساطير فكنت سيدة الجن والجان . وكم من ليلة ، وفي اليد الكتاب والى جانب الكتاب نور شمعة ضئيل ، تداولنا في سراديبك ،ووقفنا عند كنوزك ، وطفنا حول قصورك ، وسمعنا الشعراء ينشدون الشعر في دورك . واليوم ، ومطيتنا غير الخيال ، نشاهد ما يثبت المقال ، ويحقق الامال . هذه بيوتك العالية وقصورك الشاهقة فما كذب التاريخ . وهذا جمالك الطبيعي وبهاؤك العربي فما كذب الشعر . وفي خزائنك الكتب النفيسة والمخطوطات فما كذب العلم .وهذه كنوزك وسحر قصورك بل سحر الاسماء فيك فما كذبت الاساطير وكما نظنها اسماء ابتدعها الشعراء لعرائس الجن والخيال . ولكنها من الحقيقة في اعلى مكان . أفما صعدنا واياك ايها القارىء في تقيل[1] السيّان ، واجتزنا وادي نخلان ، ونمنا في يريم ووعلان ، وقيّلنا في ظلّ بُعْدان ، وها نحن نشرف على قصر غمدان !

اجل ان صنعاء في محاسنها لا تخيب للزائر املاً . وكلما دنوت منها ، وهو عكس الحقيقة في اكثر المدن ، ازداد رونقها وازداد اعجابك بها . هي في مقامها الطبيعي فريدة عجيبة . فيها الهواء اعذب من الماء ، والماء اصفى من السماء ، والسماء اجمل من حلم الشعراء . وفيها البرد ، وقد علت نسمة آلاف قدم عن البحر ، يستحيل ، وقد قربت من خط الاستواء ، دفأ . وهي قائمة في قاع سنحان ، تزينها من جهة (الروضة) وفيها البساتين والكروم ، ومن جهة اخرى (الحوطة) وفيها السواقي والطواحين . وتحيط بها الجبال دون ان تقصّر ارجاءها . اقربها اليها (عُصُر) ، وهو يظلل المروج في الاصيل ، و(لُقُم) ومنهُ تجري المياه الى المدينة وفيه تلتفاف المرايا يوصل اوامر الامام من قنة الى اخرى .وهذا (عِشار) وفيه الرخام والمرمر ، وذاك (آنس) في الجنوب و(شِقْوان) دونه شرقاً وفيهما معادن الطَّلْق . وهناك (رِضْراض) وفيه معدن الفضة . وهنالك (شِبَام) شمالاً بغرب وفيه من الحجارة الكريمة الجزع والعقيق

وصلنا الى صنعاء الظهر فلاقانا على مسافة ميل خارج السور رجال الامام وثلة من جنوده . وسرنا في موكب الفتاة وما ملكتاه . لان (الزامل) اي نشيد

(١) التقيل في اصطلاح اهل اليمن هو الطريق السالكة في الجبال العالية

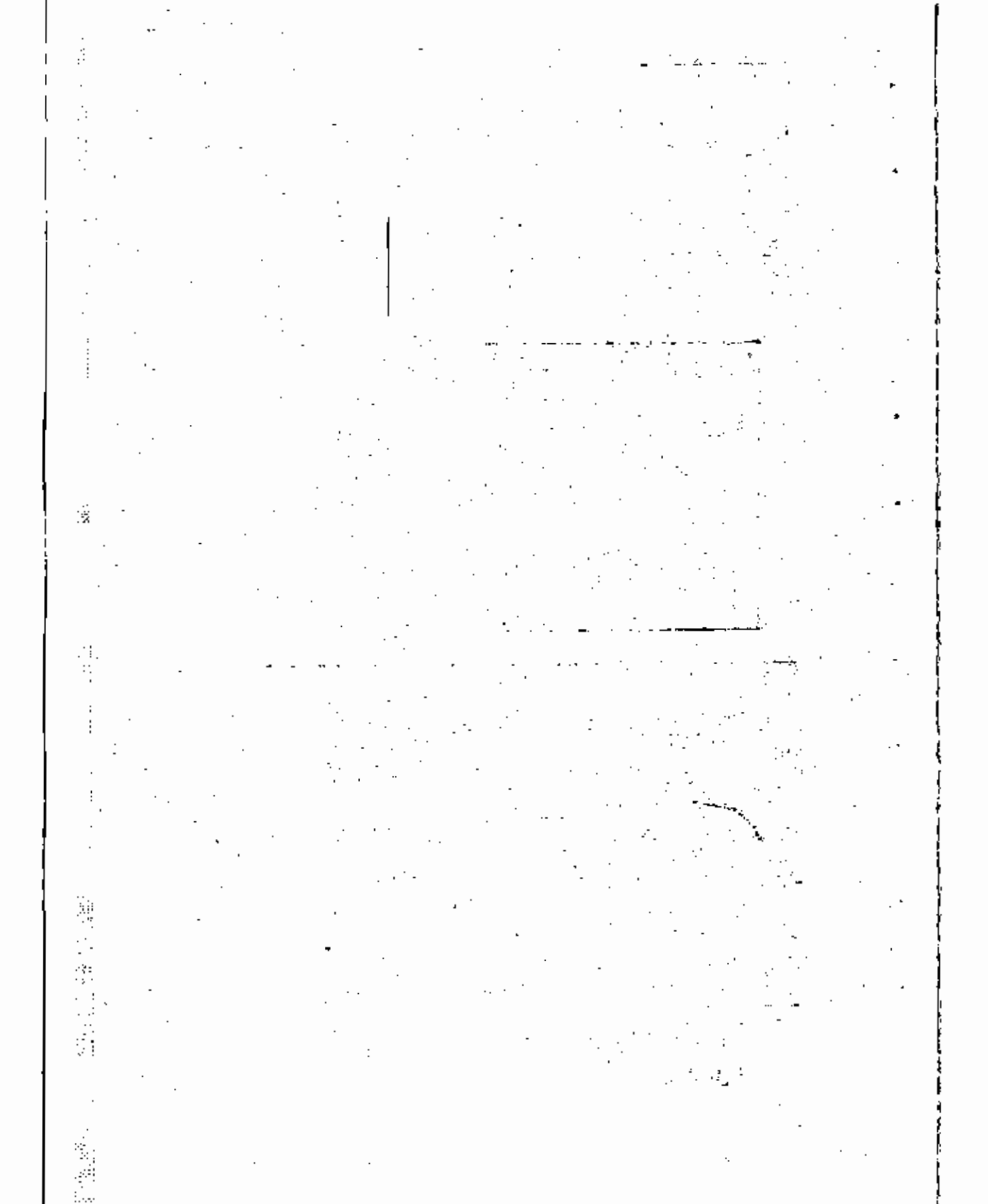

(١)

(٢)

(٣)

(١) مباني هجرة في الطريق الى صنعاء (٢) بوابة صنعاء (٣) سوق في بير العزب بصنعاء

مقتطف ابريل ١٩٢٤

امام الصفحة ٣٧٣

الزيود[1] عكس ثيابهم المتربة،[2] راقنا جداً . و كنا كل مرة يقفون فيه عند القرار الغريب الرهيب عثلهم على العدو زاحفين و بمجرد الزامل غالبين منتصرين

سرينا على تَوْر (نهر معروف) حل (وقت) السحر
ليلة مغدرة (مظلمة) ما قرها هليل (ما هل فيها قر)
واصبح الصبح ورحنا (نحن) براس التقيل
نتحور (في نحور) العدى غارسين القتيل
نعقر جوادهم مثل عقر البقر

ساروا وهم يهزجون فمروا ببوابة عدن الجميلة الهندسة والبناء والى جانبها خارج السور تكنة كبيرة شيدها الترك . ثم حول السور غرباً الى بوابة اخرى ، افضت بنا الى ساحة فسيحة بين صنعاء والحي الجديد منها الذي يدعى (بير العزب) . وهناك شاهدنا وسمنا في مظاهر الاستقبال اليمانية مشهداً اخر كان لهُ في لبنان مثيل . هو « المشوبش » وفي اليمن يدعى « الدوشن » شرع يصيح مرحّباً بنا صياحاً فيه نبرات وغنات جمعت بين رديء الخطابة والنشيد ، علمنا منها اننا نور شمس الكمال، وقمر الفضل والجلال ، وغيرها من آيات المحال

وعندما وصلنا الى (بير العزب) ، وهو الحي الذي يسكنهُ اغنياء صنعاء وفيه قصور الامام ومركز الحكومة ، ودخلنا البيت الذي اقمنا بمدتئذٍ فيه ، كان الخيال في الانتقال الى لبنان والى الشام ابهج واتم . البيت صغير ولكنهُ في الذوق واسباب الراحة كبير . ردهة الاستقبال فيه تشرف على صحن في وسطه شاذروان ، وحولهُ القرنفل والريحان ، وفوقهُ تتدلى اغصان المشمش والرمان ، يغرد فيها القمري والحسون ، وتتلألأ خلالها الشمس فتكلل جبال الماء المتصاعد من البركة لجيناً رجراجاً

أما سرورنا الاكبر في اليوم الاول ففي مائدة ، على طاولة ، تحت المشمشة ، عند الشاذروان بادرتنا اليها وعيوننا لا تصدق ان الكرسي كرسيّا ، وان في ايدينا الشوكة والسكين ، وان ما نأكل قد طبخهُ طبّاخ متمدن ، وان بالغ بالابازير . ثم سألنا ونحن في ذا النعيم عن النعيم الاخر — الحمّام . فقال السيد محمد زيّاره ، وهو

(١) اي الزيديون نسبة الى زيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب
(٢) دم يصبغون ثيابهم بالصباغ النيلي الازرق ويلبسونها والنيل فيها لا يزال رطباً

وزير المالية ووكيل الضيافة عند الامام: الحمّام يوم وصولكم لا يجوز. ولكني عرفت في اليوم الثاني عندما زرت الحمام، الذي ارسلنا مصحوبين بجندي اليه، ان للتأجيل سبباً آخر فيه دليل على ذوق السيد محمد ولطفه. فقد بعث الى صاحب الحمام بأمره بتنظيفه واعداده لنا — لنا وحدنا. ثم عرفت في اليوم الثالث ان السبب الاول في ذلك هو التحذر من اختلاطنا بالناس وعادتهم. وذلك عملاً بامر الحضرة الامامية الشريفة التي كانت يوم وصولنا متغيبة في الشمال لتحسم خلافاً بين الحواشد وعيال سرّيع استفحل امره. وقيل لنا في الطريق ان بعض رؤساء تلك القبائل كانوا يحاربون السيد الادريسي لينضموا اليه وينصروه على الزيود. ولما اخبر الامام بقدومنا أمر الاّ تقابل احداً من الناس قبل رجوعه

ولكن في اليوم الثاني زارنا احد رجاله الكبار القاضي عبد الله العمري وهو يد الامام اليمنى ورئيس ديوانه، فاستأنسنا بحضرته وسررنا بمحدثته. الفياه على جانب كبير من الفضل والاتضاع، ومن الحكمة والتساهل، فعملنا زيارته على المقارنة بينه وبين اولئك المتبجحين امراء الجيش وشكرنا الله ان في رجال الامام من ينظرون الى الامور من وجهة عالية حديثة، ويحسنون الرأي والموازنة

سألنا زائرنا عن زميله القاضي عبد الله العرشي فاجبناه بما نعلم فقال: له سنة في عدن ولم يفعل شيئاً (اي في مخابراته مع الانكليز بخصوص الحديدة) وسألناه نحن عن عمال الحكومة والسبب في الرهائن فقال: النقص موجود وبعض الخلل. ولكنها نتيجة غير أخطأت السبيل. الشافعي والزيدي اليوم متساويان. وحضرة الامام عالم عادل، سديد الرأي، سمح الخلق، قويم الخطة، لا يعرف في اقامة الحق غير الشرع. ولا يفرق بين الكبير والصغير او بين الزيدي والشافعي. ولكن هناك بعض الذين يغالون ولا يعقلون. نيّاتهم حسنة اما غيرتهم فقد اخطأت كما قلت السبيل .... ثم حضرة الامام يضبط الامور بيد شديدة. لولا ذلك لما كنت ترى العدل والامن والاقبال في انحاء البلاد كلها، الاّ في الاطراف حيث لا يزال بعض الاضطراب

وكانت هذه من القاضي عبد الله اولى الزيارات واخراها اثناء غيبة الامام، وما علمنا السبب في ذلك. الاّ اننا كنا راغبين في مقابلة رجل آخر كان معنا كتاب توصية اليه فاستأذنا السيد محمد زائره فقال: حينما يرجع الامام. وراح ذات يوم يخادمنا الى المدينة فعاد يحدّث بما شاهد فيها من العجائب والغرائب فاستأذنا السيد

محمد في زيارتها بينما نحن ننتظر رجوع الحضرة الشريفة ، فما اذن بغير الطواف حول السور ، وارسل معنا عسكريين وأحد المأمورين . مشينا في طريق واسعة بين الحقول المزروعة والسور الكبير وهو مبني من اللبن والطين، ووقفنا بعد نصف ساعة عند بوابة الشام فيه ، اي بوابة الشمال . فتباحث اذ ذاك المأمور والجنود وكنت قد سألتهم ان تدخل المدينة وكانوا قد ملّوا المشي في الشمس على ما اظن . فأسفر البحث عن اجابة طلبي بشرط ان لا يعلم السيد محمد بذلك . دخلنا المدينة وقد تعهدنا بكتم الخبر وجلنا في احياء السكن منها لا في اسواق التجارة

ان صنعاء مدينة عربية صافية روحاً وشكلاً . اسواقها مثل اسواق جدة غير مرصوفة ولكنها اوسع وانظف . اما بيوتها العالية ، وبعضها ست طبقات ، فهي اتقن بناء واجمل هندسة . لان الاسلوب العربي فيها لا يشوبهُ شيء اجنبي هندي او اوربي . وهي مبنية بالحجارة البيضاء والسوداء وبعضها بالقرميد والبعض باللبن . وبين كل طابق والآخر زنارٌ من الجص الابيض المنقوش اشكالاً هندسية . وفوق كل نافذة كوّة فيها لوح من المرمر يكاد يكون كالزجاج رقيقاً شفافاً . ولكنهُ امتن من الزجاج واجمل . ولاكثر البيوت في الطابق الاخير غرفة واحدة هي غالباً مطلوقة الجهات من الاربع تشرف على المدينة وتدعى المنظرة . وهم يستخدمونها للاستقبال والقيلولة فيفرشونها بالطنافس والمساند والوسائد . ومنهم من يستعملون الزجاج الملون في النوافذ فيقسّمونهُ اشكالاً هندسية ، ويلونونهُ بالاحمر والاصفر والاخضر والازرق . اي الاصباغ الاربعة التي يصنعونها في اليمن يستخرجونها من النبات

امّا الاحياء فتختلف رونقاً ونظافة . كان رفيقي ، ونحن ننتقل من حيٍّ الى آخر كانا نبحث عن بيت نقيم فيه ، يقول : هذه الدرجة الاولى اي احسن البيوت في المدينة ، وهذه الثانية ، وهذه الثالثة . واهل اليمن، او بالحري اهل صنعاء مثل سكان المدن كلها ، لا ينقسمون الى ما يتجاوز ثلاث طبقات . اما لو كان في جوارها او فيها من البدو لبكانت الطبقة الرابعة في المضارب خارج السور

ما عرفتُ اليمن اثناء الحرب ولا تعرف حتى اليوم غلاء المعيشة والأجور . ان مجرد ذكر اجرة البيت في صنعاء ليشوق اخواني في مصر ونيويورك الى الاقامة فيها وقد يحمل بعضهم على السفر حالاً الى اليمن . هذه بيوت طبقاتها من الثلاث الى الست ، وهي من الدرجة الاولى اي في احسن حيٍّ من المدينة ، وفيها المنظرات ،

والمرمر ، والزجاج الملون ، وما اجرة الواحد منها شهراً غير اربع ريالات تساوي اي اربعون غرشاً مصرياً . اما في الدرجة الثانية فالاجرة ثلاث ريالات . ويمكنك ان تستأجر بيتاً في الدرجة الثالثة ذا ثلاث طبقات ، لهُ زناران من الجص وكوات من المرمر بريالين فقط . اما المعيشة فلا تقل حسناً ولا تزيد نفقة بالنسبة الى البيوت[1]

وهم مع ذلك يشكون — يشكون وقوف الاشغال ، وقلة المال ، وعسر الاحوال . ومنهم من يعزونها كلها الى حكم الامام . ومنهم الى الله وحدهُ ومنهم العاقلون الذين يبرئون الله والامام من شرور هذه الايام ، وقد وصل بعضها الى اليمن عن طريق السياسة ، سياسة الترك بالامس وسياسة الانكليز اليوم . اما الامام ففي مقاومته هذه الاخيرة كما قاوم تلك يكثر الضرائب ، ويدخر الاموال ، فتقل ولا غرو في ايدي الناس فتسبب قلتها وقوف الاشغال وعسر الاحوال . ناهيك عما يعتري اليمن دائماً من الاضطراب والشقاق والضعف الناشئ عن حروبهم الاهلية . والعشائر كلها مسلّحة فيتدر فيهم ذاك الغرس الطيّب ، غرس الوطنية المجردة من المصالح الذاتية . اجل انهم مع الامام اليوم ومع اعدائه غداً . والسبب الاول في ذلك الجهل ، والسبب الاكبر هو الجهل المسلّح

قال المأمور دليلي : بعد ان حاصر الامام صنعاء[2] وسلّم الترك غنمنا من البنادق

---

(١) لم تتأثر اليمن لا اثناء الحرب ولا بدعاً من غلاء حاجات المعيشة لان ارضهم ، ولا تزرع كلها ؛ تطعمهم وتواليهم تكسيهم فلا يحتاجون غير القطن وبعض الاصباغ من الخارج . هذه اسعار بعض لوازم المعيشة هناك :

لحم الضان ثمن الرطل ٤ غروش
لحم البقر ثمن الرطل ١٠ غروش
السمن ثمن الرطل ٣٥ غرشاً
القمح ثمن القدح ٦٠ غرشاً
البطاطس ثمن القدح ٤ غروش

القدح ٤٠ اقة والاقة في اليمن كيلو وثلاثة ارباع والريال التساوي يساوي عشرة غروش مصرية

(٢) هو حصار صنعاء سنة ١٩٠٤ الذي استمر ستة اشهر فأكل اهل المدينة اثناء الحصار لحم البغال والحمير وكذلك الفيران وكان عدد الاتراك الذين سلموا وفيهم الاهالي لا يقل كما قيل لنا عن ستين الفاً . ولكنهم اغاروا بعد ذلك الكرة على صنعاء فتقهقر الامام وجنوده الى شهاره فتبعهم العدو الى تلك المضايق الهائلة وخسر هناك كل شيء . تلك هي وقعة شهاره المشهورة . لم يكن مع الامام غير ثلاثة الاف مقاتل فقتلوا ثلاثين الفاً من الاتراك وقد حاربوهم بالصخور كذلك يدحرجونها عليهم واهل اليمن يحسبون النصر في تلك الوقعة اعجوبة بل كرامة من كرامات الامام

خيرات (كثيراً) فكانت الموزة تباع بريال واحد . وبعد واقعة شهاره من استطاع ان يجر مدفعاً الى بيته أعطي لهُ . فلا عجب اذا كان في العشائر من يناهض الامام ويعصى جيوشهُ المنظمة

عدنا بعد الطواف في المدينة فكان السر الذي تعاهدنا على كتمانهِ قد سبقنا الى (بير العزّاب) ودخل مفسداً حيث لا يستطيع سواهُ . لذلك لما رغبنا المرة الثانية في النزهة قال السيد محمد دون ان يظهر ما علمهُ من سرّنا : الاولاد في المدينة يجتمعون عليكم ويزعجونكم

سكتنا على علمنا اننا اسرى الى ان يرجع الامام . والاسير لشدة ما يحدّق بالجدران يصبح حاد النظر . وتتنبه فيهِ كذلك الحواس الاخرى . فقد سمعت مرة هوتاً شبيهاً بصوت الالة الكاتبة — تك تك — تك تك تك ، وراحت العين تبحث لتحقق ظن الاذن فاكتشفت شريط السلك اي التلغراف وعلمت ان المركز فوقنا في الطابق الثاني من البيت . وكان لمنزلنا باب موصد من الخارج بينهُ وبين البوابة الى السوق حوش صغير ، سمعت يوماً جلبة فيهِ ، فاستطلعت من ثقب في الباب الخبر ، فاذا هناك بعض العساكر يتناقرون ، ثم جاء واحد وهو يقول : هم عرب مثلنا . وفتح الباب . فاستأذنتهُ في الخروج الى الحوش فأذن هاشاً وكان هو الدليل الانيس . اخبرني اننا مقيمون في بيت من بيوت الامام السديدة ، وان الحضرة الشريفة غنية جداً ، وانها تقية ، ورعة ، عالمة ، عادلة ، فهي تجلس للناس كل يوم تحت شجرة في الحوش او خارج البوابة في الساحة . اما المجلس الرسمي ففي الطابق الثاني من البيت

نحن اذن قريبون جداً من الحضرة الشريفة . او انها تعطفاً — وقال المفسدون تحفظاً — جعلتنا على مقربة من الاذن الامامية والعين العلوية . ومما لا ريب فيهِ ان الزيود يتقون كثيراً ويتكتمون . كأن هذه الحلة : وهم قريبون من المذاهب الباطنية صلة الانتساب بينهم وبينها . وهم يختلفون عن العرب بأنهم شغوفون بالفخفخة والابهة الظاهرة . ولنا في موكب الحضرة الشريفة راموز وبرهان . كنت قد سمعت بالمظلة المشهورة التي تظلل الامام يوم يؤمّ المسجد الجامع ، فتحف بهِ السادة والعلماء ، وتمشي امامهُ ووراءهُ الجنود ، وهم ينشدون « الزامل » تتقدمهم النوبة وثلة من الفرسان ، والمظلة في وسط الموكب كأنها القبة الزرقاء المرصعة بالكواكب وقد مشى تحتها القمر المنير سُبُل الدنيا والدين

وهذه المظلة التي طبّق ذكرها الافاق ومعها شقيقات صغيرات ملقاة في الزاوية في طريقنا الى الديوان . قال رفيقي وقد قبض على اكبرها : هذه لصلاة الجمعة . وفتحها فاذا هي خيمة لا مظلة. قطرها ثلاثة اذرع وهي من الحرير الازرق والابيض المزركش . وعلى اطرافها من الحرج العريض الثمين ما يندر حتى في ملابس السيدات الفخمة

رأيت في تلك الزاوية ايضاً طبول الامام العديدة حجماً وشكلاً ، بعضها مشدود على الفخار وبعضها على النحاس. والى جانبها البارق والرايات فكان الدليل اللطيف اسرع بيده مني برغبتي . فتح الراية الاولى فاذا هي خضراء مكتوب عليها بالاصفر : وفتحنا لكَ فتحاً مبيناً . والثانية صفراء مكتوب عليها بالاخضر : الجنة تحت ظل الرماح . والثالثة بيضاء وعليها بالذهب آية التوحيد والشهادة

سررت بخروجي الى الحوش وبدليلي اكثر من سروري بالطواف حول السور وفي المدينة . ولا غرو ، فقد شاهدت الرايات والطبول ، ولمست بيدي المظلة الشريفة ، واستأنست بالجندي الكريم الذي نفحني بشيء من علومه ، ثم دخل معي الى البيت وجلس القرفصاء امامي فزادني علماً بطرايق الامام . «كان قبلك في هذا البيت فتحي بك[1] وكان الامام يزورهُ ليلاً وحدهُ . سافر الاسبوع الماضي . وهو رجل «ناهي» (مليح) اعطاني هذه « الساكوة » واستدان مني عشر ريالات اعادها اليَّ عند سفره عشرين . . . . لا ادري والله ولكني سمعتهم يقولون انهُ من مصر جاء ليصلح السلك » (التلغراف)

وغداً يحدّث عنا ولا شك فيقول اننا جئنا من الجامعة الاميركية لنشتري الكتب الخطية

الفريكة بلبنان امين الريحاني

(١) قيل انه من قبل مصطفى كامل . جاء صنعاء من طريق الحجاز قبلنا بشهر والتقينا به وهو راجع من طريق عدن ويظهر ان حضرة الامام او صديقه الوالي محمود نديم (آخر ولاة اليمن وهو لا يزال في صنعاء) كان يعاوض مصطفى كامل ليستعين به على استرجاع الحديدة . وقد علمت انه اي محمود نديم كتب الى قنصل اميركا في عدن بما معناه : بلغ حضرة الامام ان دولة اميركا العظمى تمد مصطفى كامل بالمساعدات الحربية ونحن ومصطفى كامل واحد فهلا مددتمونا بشيء من المساعدة كذلك ؟ فضحك القنصل عندما وصله الكتاب وكان الضحك منه جوابه الوحيد